الفِراسةُ الخَلْقِيةُ (الكسْبيَّةُ)

كثيرٌ من أهلِ العلمِ يتطرَّقون إلى ذكرِ الفراسةِ الإيمانيَّةِ في دروسهم ويَرْدُون من الكتابِ والسنةِ وسيرةِ السلفِ العطرةِ ما يدلُّ ويؤكدُ عليها وهذا أمرٌ جيِّدٌ؛ لأنَّ الفراسةَ الإيمانيَّةَ الحديثُ عنها ذو شجونٍ ولو لم يكنْ من فائدةِ الحديثِ عنها ألا أن المرءَ إذا سمعَ بها سعى إليها سعيَها بإصلاحِ حالِه مع الله، فيكونُ قد شقَّ طريقَهُ إلى جَنَّةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ -إن شاءَ الله- وفي طريقِه إليها يجدُ كُلَّ خيرٍ ومن ذلك الفراسةُ، ولكنَّا قَلَّ أن نَجدَ من تطرَّقَ للحديثِ عن الفراسةِ الخَلْقيَّةِ من أهلِ العلمِ والفضْلِ والعقيدةِ الصحيحةِ! اللهمُّ ألا نتقٌ متفرقةٌ في كُتُبِ البَعْضِ منهم فيما أعلم.

• من الأدلَّةِ على الفِراسةِ الخَلْقيَّةِ

استدلَّ السلفُ بحُسْنِ الخَلْقةِ وسلامةِ الحواسِّ على صحَّةِ الباطنِ وكرائمِ الأخلاقِ كما استدلُّوا برداءةِ الشكلِ على رداءةِ الطَّبعِ وهذا واقعٌ ما له من دافعٍ وحذَّروا من أصحابِ العاهةِ الخَلْقيةِ وخاصةً من وُلِدَ بها! ونحنُ بَلَوْنا ذلك فوجدْنا الخبرَ يُصَدِّقُهُ الخَبَرُ.

فعن بُريدةَ -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إذا أبردْتم إليَّ بريداً فابعثوا حَسَنَ الوجهِ حَسَنَ الاسمِ»(١).

قال المناويُّ -رحمه الله-: الجمالُ يدلُّ -غالبًا- على فضيلةِ النَّفسِ إذْ نُورُ النفسِ إذا تمَّ إشراقُهُ في تعدَّى إلى البدنِ فالمنظَرُ والمخبَرُ كثيراً ما يتلازمان ولذلك عَوَّلَ أهلُ

(١) (صحيح) أخرجَهُ البزارُ في مسنده (٢٤٢) وصحَّحهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٩)، و«الصحيحة» (٣/ ١٨٢).

الفراسة! في معرفة مكارم النفس على هيآت البَدَن، وقالوا: الوَجه والعين مرآةُ الباطن ولذلك يظهرُ فيه أثرُ الغضب والسرور والغَمِّ.

ومن ثَمَّ قيلَ: طلاقةُ الوجه عُنوانُ ما في النفس!»[1].

وحذَّرَ العلماءُ من ضدِّ ذلك الحُسْن وخاصةً من بَرَعوا في الفراسة وعُرِفوا بها كالشافعيِّ -رحمه الله- فإنَّهُ قال:

«احذر الأعورَ، والأحْولَ، والأعرجَ، والأحدبَ، والأشقرَ، والكوسجَ وكُلَّ مَنْ به عاهةٌ (خاصة من وُلِدَ بها) في بَدَنه».

وقال ابن الجوزيِّ -رحمه الله-: «أما الصُّوَر، فإنهُ متى صَحَّت البنيةُ ولم يكنْ فيها عيبٌ فالغالبُ صحةُ الباطن، وحُسْنُ الخُلُق، ومتى كان فيها عيبٌ فالعيبُ في الباطن -أيضًا-.

فاحذرْ من به عاهةٌ كالأقرع والأعمى، وغير ذلك، فإن بواطنَهم في الغالب رديَّةٌ»[2].

●●●

(١) «فيض القدير» (١/ ٤٠١).
(٢) «صيد الخاطر» (٨٦).

قواعدُ بينَ يَدَيْ الفِراسةِ الخَلْقيةَ

١- معرفةُ أصلِ الفِراسةِ الخَلْقيَّةِ

قال ابنُ القَيِّم -رحمه الله-: «وأصلُ هذه الفراسة: أنَّ اعتدالَ الخلقَة والصورة هو من اعتدال المزَاج والروح، وعن اعتدالها يكونُ اعتدالُ الأخلاق والأفعال، وبحَسْب انحراف الخلْقَة والصورة عن الاعتدال يقعُ الانحرافُ في الأخلاق والأعمال. هذا إذا خُلِّيَت النفسُ وطبيعَتَها[1]»[2].

٢- معرفةُ أن الطباعَ قد تَتغيرُ

قال ابنُ القيم -رحمه الله-: صاحبُ الصورة والخلقة المعتدلة يكتسبُ بالمقارنة والمعاشرة أخلاقَ من يقارنُهُ ويعاشرُهُ، ولو أنهُ من الحَيوان البَهيم[3] فيصيرُ من

---

(١) إذا خُلِّيت وطبيعتها: أي إذا بَقَيتْ على طبيعتها الأول ولم يحاولْ صاحبُها تغييرًا من طباعه بالرياضة ومجالسة أهل الخَير والصلاح فإن الطباعَ تتغيَّرُ.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٣٦٦).

(٣) هذه أدلةٌ وبراهينُ ساطعةٌ ففي «البخاري» (٣٣٠١)، ومسلم (٥٢) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله -صلى اللهُ عليه وسلم-: «رأسُ الكفر نحوَ المشْرق، والفخرُ والخُيَلاءُ في أهل الخَيْل والإبل والفدادين أهل الوَبَر، والسكينةُ في أهل الغنم».

ولله درُّ شيخ الإسلام ابن تَيْميَةَ -رحمه الله- حَينَ قَال كما في اقتضاء الصراطَ المستقيم» (٤٨٧):

«الأدميُّ إذا عاشرَ نوعًا من الحيوان اكتسبَ بعضَ أخلاقه؛ ولهذا صَارت الخُيَلاءُ والفَخْرُ في أهل الإبل، وصارت السَّكينةُ في أهل الغَنَم، وصار الجمَّالونَ والبغَّالون فيهم أخلاقٌ مذمومةٌ من أخلاق الجمال والبغال، وكذلكَ الكلَّابُون، وصار الحيوانُ الإنسيُّ فيه بعضُ أخلاق الناس من المعاشرَة والمؤلفَة وقلَّة النَّفْرَة، فالمشابهةُ في الأمور الظاهرة توجبُ المشابهةَ في الأمور الباطنة على وجه المُسَارقة والتدرُّج الخفيِّ» اهـ.

قلتُ: تَدعَّوكَ على ذلك أصحابُ الفراسة فالحَقوا الصاحبَ بالصاحب وحتى لو كان هذا الصاحبُ حيوانًا بهيمًا على قاعدة «قُلْ لي من تُصَاحبُ أقُلْ لك مَن أنت» يشهدُ له الحديثُ المتقدمُ!

أخبث الناس أخلاقًا وأفعالاً، وتعددُ له تلكَ طباعًا، ويَتَعذَّرُ -أو يَتَعسَّرُ- عليه الانتقالُ عنها.

وكذلك صاحبُ الخلقة والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسبُ بصُحْبة الكاملين بخلطتهم أخلاقًا وأفعالاً شريفَةً، تصيرُ كالطبيعة، فإن العوائدَ والمزاولاتِ تعطي الملكاتِ والأخلاقَ»(١).

٣- الأُلْفَة(٢)

الأُلفَةُ توقفُك على حقيقة من تتفرَّسُ فيه هل باقٍ على طَبْعه الأول فتحكُمَ عليه أو أنه قد غيرَّ من طباعه فتكُفَّ عنه ومما يختصرُ لكَ الطريقَ أن تسألَ عن أخلاَّئه، وجُلسائه ومن يأنَسُ بهم هذا على الغالب، فإن كانوا هم سفَلَةَ الناسِ فاعلمْ أن الطبع غلبَ التطبُّعَ وأنهُ باقٍ على ما هو عليه، وإنْ كان جلساؤه عليةَ القدمِ وأشرافَهم فلا تَتَعجَّل في الحُكْم حتى ينضافَ إلى ذلك نفورُهُ من سَفَلَة الناسِ؛ لأنَّه قد قيل.

كُلُّ امرىءٍ صائرٌ يومًا لشيمَتِه ... وإنْ تَخَلَّقَ أخلاقًا إلى حينِ

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٣٦٦).

(٢) الأُلفةُ قاعدةٌ ذهبيةٌ في معرفة طباع الناس وأخلاقهم ويتعدَّى ذلك لمذاهبهمْ، وأفكارهم وعلى ذلك أدلةٌ ففي «صحيح البخاري» (٣٣٣٦) عن عائشةَ -رضي الله عنها- قالتَ: قال رسول الله -ﷺ-: «الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدةٌ (أي جموعٌ مجمَّعةٌ) فما تعارفَ (أي توافقت صفاتها، وتناسبت أخلاقها) منها ائتلَف (من الألفة وهي المحبةُ) وما تناكرَ منها اختلفَ (أي تباعد) وهو أيضًا -في «مسلم» (٢٦٣٨) من حيث أبي هُريرةَ -رضي الله عنه- قال الحافظُ -رحمه الله- في «الفتح» (١٠/ ٤٢٦): «قال الخطابيُّ: يُحْتملُ أن يكونَ إشارةً إلى معنى التَّشاكُل في الخير والشر، والصلاح والفساد، وأن الخيرَ من الناس يَحنُّ إلى شكله، والشريرُ نظيرُ ذلك، يميلُ إلى نظيره؛ فتعارفُ الأرواح يقَعُ بَحَسْب الطباع التي جُبلَتْ عليها منَ خير وشرٍّ فإذا ائتَفقتْ تعارفتْ وإذا اختَلفتْ تناكرت.

قلتُ -أي ابنُ حَجَر- ولا يُفْكَرُ عليه إن بعضَ المتنافرَين رُبَّما ائتلفا؛ لأنَّهُ محمولٌ على مبدإ التلاقي فإنَّه يتعلَّقُ بأصل الخَلْقة بغير سبب، وأما في ثاني الحال فيكونُ مكتسبًا؛ لتجدُّد وصفٍ يقتضي الألفةَ بعدَ النَّفْرَة كإيمَان الكافرِ وإحسَان المُسيء» اهـ.

٤- الجمعُ بين علاماتِ الفِراسةِ

أنهُ متى -جمع المرءُ بينَ العلامات كان أقربَ إلى الصواب؛ لأنَّ علمِ الفراسة سلسلةٌ مترابطةٌ الحلْقَة ومتى أهملَ بعضَ العلاماتِ أو القواعدِ اختلفت أحكامُهُ ولابُدَّ[١].

قال ابنُ القيم -رحمه الله-: فليتأمَّلْ هذا الموضعَ ولا يَعْجَلْ[٢] بالقضاء بالفراسة دُونَهُ، فإن القاضي حينئذ يكونُ خطؤه كثيراً، فإن هذه العلامات أسبابٌ لا موجبةٌ، وقد تختلفُ عنها أحكامُها لفواتِ شَرْطٍ، أو لوجودِ مانعٍ»[٣].

٥- يحكمُ لأقوى العلاماتِ وأظهرِها

متى اجتمعت الدلائلُ المتضادَّةُ حكمَ بأقواها ورجَّحَ أظهَرها، بعدَ أن تعلَّمَ أن دلائلَ الوجه والعين خاصةً أقوى الدلائل وأصَحُّها في الحدِّ الذي ينتهي إليه العلمُ بقياسِ الفِراسةِ[٤].

●●●

(١) الفراسةُ التي تعتمدُ على أصول معينة كقولهم إن صغرَ العينين دليلٌ على المكر وما شابَهَ ذَلك أمرٌ غيرُ مطرَّد ولكنَّها تقومُ على الاستقراء والإحصاء وعلى مجموعة من الإشارات والعلامات يُستَدَلُّ بها ويُقَوِّي بعضُها بعضًا فعلى الغالب يكونُ الحكمُ وليس على التعميم ولكلٍّ قاعدة شواذُّ.

(٢) أي: لا تعجلْ قبلَ الإلمام والنظر للأمر من جميع جوانبه.

(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٤) نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون «الرسالة المصرية» لأبي الصلت الأندلسيِّ (٨١) وقال عَقِبَ ذلك في نفسِ الكتاب والصفحة: «ويجري هكذا من الإنصاف أن تعلم أن قياس الفراسة مقدماته مأخوذةٌ من مُشابَهاتٍ موجودٍ بين أشخاصِ الناسِ، أو من مشابهاتٍ موجودةٍ بين الحيوانِ والإنسانِ» اهـ.

فراسةُ المحبَّةِ

١- القلوبُ شواهدُ المحبَّةِ

لا أسألُ الناسَ عما في ضمائرِهمْ ... ما في ضميري لَهُمْ من ذاك يكفيني

ما من شَكٍّ أن المحبةَ مثلُ إشارة الاسلكية فإذا شَعَرْتَ بالمحبَّة في دقات قلبكَ تجاهَ شخصٍ فاعرفْ أنَّهُ هو الآخر يشعرُ بمثْلِ ما تشعُرُ به في قلبه كما قيل:

لا تسألِ المرءَ عما عندَهُ ... واستَلَّ ما في قلبِه من قلبكا

إن كان بغضًا كان عندك مثْلُهُ ... أو كان حبًّا فازَ منكَ بحُبِّكا

والنبيُّ -ﷺ- يقولُ: «**الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ فما تعارفَ منها آئتلفَ، وما تناكرَ منها آختلفَ**»(١).

ورأى ابنُ عباسَ -رضي الله عنهما- رجلاً، فقال: «إن هذا لَيُحبُّني».

قالوا: «وما علْمُكَ؟!

قال: «إني لأُحبُّهُ، والأرواحُ جنودٌ مجنَّدَةٌ فما تعارفَ منها ائتلفَ وما تناكرَ منها اختلفَ»(٢).

وقال رجُلٌ لآخَرَ: إني أُحبُّكَ، فقال: رائدُ ذلك عندي»(٣).

أي إنَّ الذي عندك لي مثلُ الذي لك كما قال بكرُ بنُ النَّطَّاحِ:

وعلى القلوبِ من القلوبِ شواهدٌ ... بالودِّ قبلَ تشاهُدِ الأرواحِ(٤)

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٣٣٦)، ومسلمٌ (٢٦٣٨).
(٢) «روضةُ العقلاء» (١٨٠).
(٣) «محاضرةُ الأدباء» (٣/ ٥٢).
(٤) «المرجع السابق» (٣/ ٥٢).

وقال رجل لعبد الله بن جعفر: إن فُلانًا يَقُولُ: إنه يُحبُّني، فبماذا أعلمُ صِدْقَهُ؟!

قال: امتحِنْ قلبَهُ بقلبكَ، فإن كُنْتَ تودُّهُ فإنَّهُ يودُّكَ»[1] وقال الشاعر:

وإذا اعتراكَ الوهمُ في حالِ امرىءٍ ... فأردْتَ تعرفُ خيرَهُ من شرِّهِ

فاسألْ ضميركَ عن ضميرِ فؤادِه ... يُنبئْكَ سِرُّكَ بالذي في سرِّهِ

قال آخر:

قلبي وقَلْبُكَ بِدْعَةٌ[2] خُلقَا ... يتجاريان بصادقِ الحُبِّ

٢- معيونُ على القلوبِ شواهدٌ

ألا إنَّ عينَ المرءِ عنوانُ قلبِه ... تخبرُ عن أسراره شاءَ أمْ أبى

فراسةُ المحبَّة كما تُعرفُ بامتحانِ قَلْبكَ بقلبِ مَنْ تُحبُّ فهي تُعرفُ من خلال العَين لأنَّ العينَ بابُ القلب وأعظمُ طرقِ الحواسِّ إليه كما قالت الحكماءُ: «فما كانَ في القلبِ ظَهَرَ في العَيْنِ»[4].

قال محمودُ الوَرَّاقُ:

إن العيونَ على القلوبِ شواهدٌ ... فبغيضُها لك بَيِّنٌ وحبيبُها

وإذا تلاحَظَتِ العيُونُ تفاوضَتْ ... وتحدَّثت عمَّا تُجنُّ قُلوبُها

يَنْطِقْن والأفواهُ صامتةٌ فما ... يَخْفى عليكَ بريئُها ومُريبُها[5]

وقال ابنُ أبي حازم:

---

(١) «محاضرة الأدباء» (٣/ ٥٢).

(٢) البِدْعَة -بالكسر- الغاية في كُلِّ شيءٍ والمراد به هنا الغاية في الحُبِّ.

(٣) «محاضرة الأدباء» (٣/ ٥٣).

(٤، ٥) «العقدُ الفريدُ» (٢/ ٣٥٤-٣٥٥).

خُذْ من العيشِ ما كفى ومن الدَّهرِ ما صفا
عَمَّنْ من لا يُحِبُّ وصـ ـلَكَ تُبدِيْ لك الجفا[1]

وقال ابنُ عبدِ ربِّه الأندلسيُّ

صاحبٌ في الحبِّ مكذُوبُ دَمْعُه للشَّوْقِ مَسْكوبُ
كلُّ ما تطوي جوانحُهُ فهو في العينين مكتوبُ[2]

فمن خلال ما تقدَّمَ تعرفُ أنَّ فراسةَ العين تُعزِّزُ من فراسة القلب بل العيونُ مرآةُ القلوب بها يَعرفُ المرء ما في قلب صاحبِه وإن لم يتكلَّمْ صاحبُهُ وأحسن ما يُصَوِّرُ ذلك قولُ أحَدَ الشعراء وأحْسنَ:

خليليَّ للبغضاء حال مُبِيْنَةٌ وللحبِّ آثار تُرى ومعارفُ
فما تُنْكرُ العينان فالقلبُ مَنكرٌ وما تعرفُ العينان فالقلبُ عارفُ

وبالجملة فالقلبُ هو الأصلُ والعينُ تَجلو ما فيه وتجعلُهُ واضحًا للعيان وإن كتمَ المرءُ ما في قلبِه ألا أنَّ العينَ فضاحَةٌ ومِنْ أمثال العَرَبِ قولهم: «جَلَّى مُحِبٌّ نَظَرَهُ»[3].

ومنه قولُ زهيرِ بنِ أبي سُلمى:

فإن تَكُ في صديقٍ أو عدُوٍ تُخْبِّرْكَ العيونُ عن القلوبِ[4]

●●●

(١، ٢) «العقدُ الفريدُ» (٢/ ٣٥٤-٣٥٥).
(٣) فصل المقال (٤٨٦)، قال أبو عبيد: «يُغرَبُ لمن يُحسِنُ النظرَ إلى أحبابه، من «جَلَوْتَ العروسَ» إذا حسَّنتها» «مجمع الأمثال» (١/ ١٨١).
(٤) «مجمع الأمثال» (١/ ١٨١).

فراسة التَّبَسُّم

بشوشًا تكادُ العينُ تلمحُ قلبَهُ وتُسردُ في نجواهُ نظمُ السَّرائرِ
وتضحكُ والأتراحُ[١] حولك جمَّةٌ[٢] تخافُكَ خوفَ الجسِّ رَحْمَ الزَّواهرِ[٣]

البسمةُ رسولَ صدقٍ عمَّا يُكنُّهُ الإنسانُ للطرف الموجَّه له؛ لأنها تنبعثُ مما يعتري طبيعةَ الإنسانِ ولقَدْ رَصَدَ الباحثون تسع ابتساماتٍ مختلفةٍ منها ثلاثٌ كثيراً ما تحدثُ.

١- الابتسامةُ البسيطة

لا تُفتحُ فيها الشفاهُ ولا تبينُ الأسنانُ إلا في حالة وجود بروز في الأسنان، أو قصرٍ في الشَّفَةِ العليا. ويبتسمُها الإنسانُ لنفسه، وحيداً إلا من ذكرياتٍ سعيدةٍ.

٢- الابتسامةُ العليا:

تحدثُ أثناءَ اتصال بصريٍّ بتبادل النَّظَرات مع آخرين تؤدِّي بانفراجِ الشفتين عن الأسنان العليا فقط. وتُستَعملُ للتحيَّة أو أثناءَ إلقاء السلام والمصافحة وهي أصدقُ ما تكونُ عند ما يستخدمُها الأطفالُ في الترحيبِ بآبائهم وأمهاتهم بعدَ غيابٍ.

٣- الابتسامةُ العليا بعضُ الشفةِ السُّفلى

تبتسمُها بعض النساء والفتيات إشارةً إلى أنَّ مَن تبتسمُ لهُ، قَويُّ التأثيرِ عليها، وأنها تخجلُ منه إلى درجةِ إخفاءِ الابتسامة.

(١) الأتراح: الأحزان. (٢) جمَّة: كثيرة.
(٣) الزواهر النجوم.

٤- الابتسامةُ العريضةُ

تظهرُ فيها أسنانُ الفكَّين، وغالبًا ما تكونُ مصحوبةً بالضَّحك، ولا يتمُّ معها تبادلُ نظرات وتحدُّث أثناء اللَّعب، والمزاح، وتبادل النكت.

٥- الابتسامةُ المستطيلةُ

الشفاهُ فيها ممطوطةٌ، وأسنانُ الفكَّين ظاهرةٌ، ليس لها عمقٌ ولا مذاقٌ، ولا تشتركُ فيها العينُ بأي تزويق، فهي ابتسامةُ مجاملة وترضية وتأدبًا مع من لا يستحقُّها.

وقال أستاذنا عبد الكريم العماد عن التبسم المصطنع وذكر أنه قالها أيام الصباء:

تبسَّمَتُ أخفي بعض ما بي من الأسى ... حذار العدى، والنار في القلب تلهبُ

فيا بسمةً من غير صدقٍ تألَّقت ... كفى كذبًا؛ إني امرءٌ لست أكذبُ

أقلبي أساك ابلع، ويا عين أقلعي ... تعذبتما، والخلُّ يلهو ويلعبُ

●●●

فراسةُ تَحسينِ الألفاظِ

١- تحسين الألفاظِ بابٌ من أبوابِ الفِراسةِ

ما من شكٍّ أن تحسينَ الألفاظِ بابٌ عَظيمٌ من أبوابِ الفِراسةِ اعتنى به أصحابُ العقولِ الراجحةِ من الأكابرِ والعلماءِ

قال ابنُ القيِّمِ -رحمهُ اللهُ- بعدَ أن ذكرَ بعضَ الخلفاءِ وقد سألَ ولدَهُ -وفي يدِهِ مسواكٌ- ما جَمْعُ هذا؟

فقال: (محاسنُك) يا أميرَ المؤمنين!

قال: «وهذا من الفراسةِ في تحسينِ اللَّفْظِ، وهو بابٌ عظيمٌ، اعتنى به الأكابرَ والعلماءُ وله شوهدُ كثيرةٌ في السُّنَّةِ وهو من خاصَّةِ العقلِ والفطنةِ، فقد روينا عن عُمَرَ -رضي اللهُ عنه- أنه خرجَ يعسُّ المدينةَ باللَّيلِ، فرأى نارًا موقدةً في خباءٍ، فوقف وقال: (يا أهلَ الضَّوءِ). وكَرِهَ أن يقولَ: يا أهلَ النَّارِ.

وسألَ رجلاً عن شيءٍ: (هل كان)؟ قال: لا، أطالَ اللهُ بقاءَك، فقال: (قد علَّمْتُمْ فلَمْ تَتعلَّموا، هَلاَّ قُلْتَ: لا، وأطالَ اللهُ بقاءَك)؟

وسُئِلَ العباسُ: أنت أكبرُ أم رسولُ الله -ﷺ؟

فقال: هو أكبرُ منِّي، وأنا وُلِدْتُ قَبْلَهُ.

وسُئِلَ عن ذلك قباثُ بنُ أشيمَ؟

فقال: رسولُ الله -ﷺ- أكبرُ منِّي، وأنا أسنُّ منْهُ وكان لبَعْضِ القُضاةِ جليسٌ أعمى، وكان إذا أرادَ أن ينهَضَ يقولُ: يا غلامُ اذهَبْ مع أبي محمدٍ، ولا يقولُ: خُذْ بيَدِه، قالَ: واللهِ ما أخَلَّ بهذه مَرَّةً.

ومن ألطف ما يُحكَى في ذلك: أن بعضَ الخلفاء سألَ رجلاً عن اسمه؟

فقال: سعدٌ يا أميرَ المؤمنينَ.

فقال: أيُّ السعود أنتَ؟

قال: سعدُ السعود لَكَ يا أمير المؤمنين. وسعدُ الذابحُ لأعدائك، وسعدُ بلعٍ على سماطك، وسعدُ الأخبية لسرِّك، فَأعجَبَهُ ذلكَ.

ويشبهُ هذا أنَّ معنَ بن فرائدةَ دَخَلَ على المنصور، فقاربَ في خَطْوه. فقال له المنصورُ: كَبُرَتْ سنَّكَ يا مَعْنُ، قال: في طاعتك يا أميرَ المؤمنين. قال: إنَّكَ لَجَلْدٌ. قال: على أعدائكَ، قال: وإنَّ فيك لَبَقيَّةً، قال: هي لَكَ.

وأصلُ هذا الباب: قولُهُ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣].

فالشيطانُ يَنْزِغُ بينهم إذا كلَّمَ بعضُهم بعضًا بغيرِ التي هي أحْسَنُ.

وفي «الصَّحيحين»(١) من حديث سهلِ بن حنيف قالَ: قالَ رسولُ اللهُ -ﷺ-: (لا يقولَنَّ أحدُكم: خَبُثَتْ نفسي، ولكنْ ليَقُلْ: لَقَسَتْ نفسي)، و(خَبُثَتْ) و(لَقَسَتْ) و(غَثَّتْ) متقاربَةُ المعنى؛ فكرهَ رسولُ الله -ﷺ- لفظَ (الخُبْث) لبشاعَته وأرشدَهَم إلى العدول إلى لفظ هو أحسنُ منه، وإن كان بمعناهُ تعليمًا للأدب في المنطق، وإرشادًا إلى استعمال الحَسَن، وهَجْرِ القبيح من الأقوال، كما أرشدَهُم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال»(٢).

(١) رواه «البخاريُّ» (٥٨٢٥) ومسلمٌ (٢٢٥١).
(٢) «الطرقُ الحكميةُ» (٦٢).

٢- تحسينُ الألفاظِ حليةُ المتفرِّسينَ

تحسينُ الألفاظ حليةٌ تحلَّى بها المتفرِّسون تخالُهم ينْتقون الألفاظَ كما ينْتَقُون أطيبُ التَّمرِ ويتخيَّرون الكلماتِ التي تأخَذَ باللُّبِّ، وتنفُذُ إلى شفافِ القَلْبِ.

وتأمَّلْ معي هذه القصَّةَ وهي أنَّ أحدَ الملوك رأى كأنَّ أسنانَهُ قد سقَطَتْ فعبرها لَه معبِّرٌ بموت أقاربه، فأقصاهُ وطرَدَهُ، واستدعى آخرَ فقال له: لا عليكَ، تكونُ أطولَ أهلك عُمْرًا، فأعطاهُ وأكرمَهُ وقرَّبَهُ فأنت ترى أنَّ الأوَّلَ لم يُحسنِ اختيارَ الألفاظ ولم يستعملْ فراستَهُ في مقامٍ يستدعي انتقاءَ الألفاظ وبلاغَةَ الطَّرْحِ.

بينما الثاني استوفى المعنى، وغيَّرَ له العبارَةَ، وأخرجَ المعنى في قالبٍ حَسَنٍ.

وقد ذكرَ هذا الخبرَ الإمامُ السَرَخْسي، ثُمَّ قال: «وهما في المعنى سواءٌ ليعلمَ أنَّهُ ينبغي للمرءِ أن يُراعِيَ عبارتَهُ».

باللهِ لفظُكَ هذا سالَ من عَسَلٍ ... أمْ قد صيْتَ على أفواهنا العَسلا؟!

أمِ المعاني اللواتي قد أتيتَ بها ... أرى بها الدُّرَّ والياقوتَ مُتَّصلاً؟!

فيا أخي الحبيبَ إذا وجدْتَ طريقين موصلَين إلى مطلوبك فمن الحكمة أن تسلُكَ الطريقَةَ السابقةَ السهلةَ وتنأى عن الوَعرَةِ ذات الأخطار والعقبات التي قد توصلُكَ إلى مرادكَ وقد تنقطعُ يده السُبُكَ، وهكذا الشأنَ في كلِّ مطلوبٍ ومن ذلك الكلامُ فلا تلجأ إلى الألفاظ الخشنة الوعرَةِ التي تمجها الأسماعُ وتنفرُ منها الطباعُ، والسهلةُ اللطيفةُ متيسرةٌ.

وها هم السلفُ يربُّون طلابَهم على الكلمات الطيبَة.

قال المزنيُّ -رحمه الله-: «سمعني الشافعيُّ يومًا وأنا أقولُ: فلانٌ كذَّابٌ، فقال لي: يا إبراهيمُ: اكسُ ألفاظَكَ أحسنَها، لا تقل كَذَّابٌ ولكنْ قُلْ حديثُهُ ليس بشيءٍ».

فأنت ترى أن المعني متقاربٌ لكنَّ الثانيةَ بقدْرِ ما كساها من الحُسْنِ والجمالِ فإنها كَسَتْهُ ثوبَ المهابةِ والجَلالِ.

قال ابن الأثير -رحمهُ اللهُ-: ومن له أدْنَى تأمُّلٍ يعلمُ أنَّ الألفاظَ في الأُذُن نَغْمَةٌ لذيذةٌ كنَغَمَ الأوتارِ وصوتًا مُنكرًا كصوتِ الحمارِ، وأنَّ لها في الفمِ -أيضًا- حلاوةً كحلاوةِ العسلِ، ومرارةً كمرارةِ الحنظَلِ، وهي على ذلك تجري مجرى النغماتِ والطُّعومِ»[1].

ولله در القائل:

في زُخْرفِ القولِ تزيينٌ لباطلِه ... والحقُّ قد يعتريه سُوءُ تعبيرِ

تقولُ هذا مُجاجُ[2] النَّحلِ تمدحُهُ ... وإن ذممْتَ، فقُلْ قَيءُ الزَّنانيرِ

مدحًا وذمًا، وما غيَّرتَ من صفةٍ ... سِحْرُ البيانِ يرى الظلماءَ كالنُّورِ

٣- تحسين الألفاظِ أدبٌ رباني

والذي عليه أهلُ الفضلِ والدِّينِ أنَّهم يُلبسُون ألفاظَهم أحسنَ الألْبسَةِ وبذلك حازوا المكانةَ الكليَّةَ، وصار لهم المحلُّ الأرفَعُ في القلوبِ وأشْرَقتْ قلوبُهم بأنوارِ الفراسةِ وما زال إلا لأنهمْ تأدَّبُوا بأدبِ النُّبوَّةِ.

فعن ابنِ مسعودٍ -رضي اللهُ عنهُ- قال: قال رسولُ الله -ﷺ-: «ليسَ المؤمنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ، ولا الفاحشِ البَذِيءِ»[3].

قال النوويُّ -رحمهُ اللهُ-: «ومما يُنهى عنهُ الفُحْشُ، وبذاءَةُ اللِّسانِ، والأحاديثُ الصَّحيحةُ فيه كثيرةٌ معروفةٌ.

---

(١) «المثل السائر» (١/ ١٥٦).

(٢) المجُاج: ما سال من الفم.

(٣) (صحيح) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٤-٤٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٨١).

ومعناه: التَّعبيرُ عن الأمورِ المُسْتَقْبَحَةِ بعبارةٍ صَريحَةٍ، وإنْ كانتْ صَحيحةً، والمُتكلِّمُ بها صادقًا.

وينبغي أن يُستعملَ في ذلك الكناياتُ، ويعبَّرَ عنها بعبارةٍ جميلةٍ بها يُفْهَمُ الغَرَضُ» وبهذا جاءَ القرآنُ العزيزُ، والسُّنَنُ الصحيحةُ المكرَّمةُ.

قال اللهُ -تعالى-: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

والآياتُ والأحاديثُ في ذلك كثيرةٌ.

قال العلماءُ: فينبغي أنْ يُستعملَ في هذه وما أشْبَهَهَا من العبارات التي يُستَحيا من ذكرها بصريحِ اسمها الكفاياتُ المُفْهِمةُ؛ فيكنِّيَ عن جماعِ المرأةِ بالإفضاءِ، والدُّخولِ، والمعاشَرةِ، والوقاعِ، ونحوها»[(١)].

قال النوويُّ -رحمه الله-: «وكذلك يُكنِّي عن البول والتَّغَوط بقضاءِ الحاجةِ، والذَّهابِ إلى الخَلاء، ولا يصرِّحُ بالخراءة، والبول، ونحوهما.

وكذلك ذكرُ العُيوب، كالبرصِ، والبَخَرِ، والصنانِ، وغيرها يُعبَّرُ عنها بعبارةٍ جميلةٍ يُفهم منها الغَرَضُ.

ويَلحقُ بما ذُكرَ من الأمثلة سواهُ»[(٢)].

وقال الماورديُّ -رحمه الله-: «وما يجري مَجرَى فُحْشِ القول، وهُجْره، ولزومِ تنكُّبه ما كان شفيعَ البديهة، ومستنكرَ الظاهرِ، وإن كان عَقِبَ التأمُّلِ سليمًا، وبعد الكشفِ والرَّويَّة مستقيمًا»[(٣)].

---

(١) «الأذكار» (٣٧٥).
(٢) «المرجع السابق» (٣٧٦).
(٣) «آداب الدنيا والدين» (٣٥٥).

وقال القاسميُّ -رحمهَ اللهُ-: «إيَّاك، وما يُسْتقْبَحُ من الكلامِ؛ فإنَّهُ يُنفِّرُ عنك الكرامَ، ويؤثِّبُ عليكَ اللئامَ»(١).

ولك أن تتأمَّلَ عبارات الإمامِ البخاريِّ في الجَرْحِ والتعْديلِ وكيفَ كانتْ على درجة عالية من الأدبِ وسُمُوِّ العبارة مع أنَّ كتَابَهُ أصحُّ كتاب بعد كتاب الله -جل جلالُهُ- بل تأمَّلْ كيفَ صارتْ مَضْرِبَ المثلِ في السموِّ والأدبِ كقوله في المجروح: فيه نظرٌ، تركوهُ، سكتُوا عنه، ونحو ذلك.

وبهذا يتبيَّنُ لك أهميةُ العبارة، وذوقها، وخطأُ مَنْ يتوهَّمُ أنَّهُ إذا كان صريحًا فلا بأسَ عليه أن يُلبسَ عباراته أيَّ ثوبٍ شاءَ(٢).

قال أستاذنا الحبيب عبد الكريم العماد -حفظه الله-:

كلّي عيوبٌ غير أنك جئتني ... بجميعها، ملفوفةً بحريرِ

وسواك عدَّدها عليَّ صريحةً ... فطفقْتُ ألقاهُ بلا توقيرِ

●●●

(١) «جوامع الآداب» (٦).

(٢) «ارتسامات» لمحمد بن إبراهيم الحمد (١٤١) بتصرف يسير.

فراسةُ الكلام

١- المزاحُ

متى وجدْتَ الرجلَ يَسْخرُ منك بأسلوب ماكر وكأنَّهُ يمزحُ معكَ فلاتأ مَنْهُ فإنَّ ذلك الأسلوبُ يعكسُ مدى كَرْهه لك وغَيْرَته منك هذا ما ذكرَهُ العلمَ أكَّدتْهُ التجاربُ.

فمنْ كان يضايقُكَ لهذه الصورة إنَّما يُريدُ التَّقليلَ من شأنكَ لشعوره بعدم الرَّاحة والرِّضا فَما أنت فيه، وغضبِه المكتوم تجاهَك.

قال أستاذنا عبد الكريم العماد -حفظه الله-:

إن الحسود يقول ما في قلبه ... من بغضه لك في ثياب المازحِ

فاحذرْهُ؛ فهو يغارُ معك لنَقْصه ... والحقدُ فيه كملحِ بحرٍ مالحِ

٢- المعارضة:

الذي يعارضُكَ في كُلِّ شيء تقولُهُ يعكسُ عدمَ احترامه لك فهو يعارضُك في كل صغيرة وكبيرة بسبب أنَّهُ لا يحبُّك ولا يرتاحُ لك لشعوره أنك أفضلُ منه ويشيعُ هذا السلوكُ بين الأقاربِ والمتقاربين في السِّنِّ. ولا يعني هذا إذا كُنْتَ تخطىءُ مَمَنْ يعس بهذه الصِّفَة يتَّضحُ من قَبوله بعضَ الأفكار وردِّه البعض الآخر والغفلة عن البَعْضِ وظهورِ شيءٍ من الأدب يَتَملقُ المُتلَمِّعُ.

٣- الاحتقار:

الذي يقلِّلُ من شأنك في المجالس والمحافل ويستأثرُ بالكلام دونَكَ ولا يلتفتُ إليك ولا يشيد بفَنِّكَ الذي تُحْسنُهُ أو يَرجعُ إليك حالَ خطإٍ منْهُ أو استدرك منك

وربَّما دافعَ ذلك الاستدراك يكلامٍ مُلتو يعبِّرُ عن شَّخصٍ لا يحترمُك أو أنَّه يحقدُ عليك أو يَغارُ منك أو يشعُرَ أنك متفوِّقٌ عليه - فهو يلجأ إلى التقليل من شأنك من أجلِ تعزيزِ مكانته.

قال أستاذنا عبد الكريم العماد -حفظه الله-:

إن قلتُ: لا، قال: نعم ... أو قلتُ مَسعدُ، قال: غَمْ

وإن ضحكت له بكى ... وإذا بكيتُ له ابتسمْ

راقبِ نياجك، قال: لا ... تسطو الذئاب على الغنمْ

ضع فيه حبرًا قال: ما ... إذ جفَّ في يده القلمْ

اغسل ثيابك قال: أنوظفُ ... ما تكون مع الزَّهَمْ

صلِّ وصُمْ فأجاب تر ... كُهما بُعَدٌّ من اللمَمْ

الغلُّ ملءُ عروقِه ... ما عاد محتاجًا لدمْ

٤- كثيرُ الكلامِ من غيرِ طائلٍ

ذلك يعكسُ شخصيةً تشعرُ بالخوفِ وعدمِ الراحةِ حتى تلجأ إلى الكلامِ بحثًا عن الراحةِ والهدوءِ.

وتشيرُ الدراسةُ النفسيَّةُ أنَّ هؤلاءِ الأشخاصَ كانوا يشعرون بالوَحدة أثناءَ طفولتهم فهم إما يكونون أطفالاً مُنغلَقين على أنفسهم أو أنَّهم يعانون من وَحدة نفسية فيتجاهلهُم والداهم وأقرباؤهم فهم يتحدَّثون بصفة دائمة من أجلِ تسليةِ أنفسهم، وفي بعضِ الأحيان يكونُ الكلامُ الزائدُ لدى هؤلاءِ الأشخاصِ مرتبطًا بتناولِ نوعٍ من الأدويةِ لمدةٍ طويلةٍ أو نتيجةَ خللٍ عصبيٍّ أو عقليٍّ أو جينيٍّ.

٥- الحديثُ عن النَّفسِ

من كان جُلَّ حديثه مُتمركزًا حولَ ذاته وأعماله وإذا كان المتكلِّمُ حولَ الموضوعِ غيرُهُ أطالَ الاستماعَ وإذا كان الكلامُ بعيدًا عن ذلك غيرَّ الموضوعَ أو أخذَ دفَّةَ الحديث ليعودَ لوضعه السابقِ فذلك يدلُّ على الأنانيَّة وحبِّ الذات.

٦- النمَّامُ

متى رأيتَ الرَّجُلَ ينقُلُ إليكَ حديثًا فاعلمْ أنَّ غَرَضَهُ الأكبرَ والأهمَّ هو نَقْلُ حديثكَ إلى غيركَ وبالذَّات إلى من نَقَلَ لَكَ عنهُ، فلا تأمَنْهُ وقد قالَ الشافعيُّ: «مَنْ نمَّ لكَ نَمَّ بِكَ»(١).

وقال آخرُ: «مَن نَقلَ إليك حديثًا فاعلمْ أنَّهُ ينقُلُ حديثَكَ إلى غيرِكَ».

●●●

(١) تهذيبُ الأسماء واللُّغات (٨٠).

المُصافَحةُ في الفِراسةِ

توصَّفَ باحثون إلى أنَّ المصافحةَ تكشفُ جوانبَ من شخصيَّتنا وهناكَ العديدُ من طُرُقِ المصافحة باليَد أشهرُها.

١- المصافحةُ المتساويةُ:

صفاتُها: (متوازنةٌ بين الطَّرفَين وبشكلٍ عموديٍّ)

ميزاتها: تتميَّزُ بالثِّقَةِ والهدوءِ من قبلِ الطرفَين بشكلٍ صحيٍّ وهي مصافحةٌ الأشخاصِ الأسوياء.

٢- المصافحةُ السائدةُ

صفاتُها: سيادةُ يدٍ على الأُخرى أي يدٌ فوقَ الأخرى بوضع مقلوب.

ميزاتُها: تتميزَّ بتأكيد المحبَّة من الطرفَ السائد أو اليد العُليا وتكونُ منفصلَّةً بين الأحبابِ والمقَّربين فقطْ.

وتسمَّى -أيضًا- مصافحةُ المُستسلم؛ لأنَّ اليدَ السُّفلى يقولُ صاحبُها: سأتركُ المجالَ أن تتولى زمامَ الأمورِ في حالِ قَلَبَ شخصٌ لتكونَ السفلى.

وبعضُ الدراسات المكثَّفَة تذهبُ إلى أنَّ اليَد العُليَا تريدُ الهيمنةَ على مَنْ حولَها ويتميزَّ صاحبُها بالكبْر والاحتقارِ للآخرين وهذا القولُ وجيهٌ سيَّما إذا كان يستخدمُ ذلك مَعَ العامَّة دونَ النُّظراء.

٣- المصافحةُ المَشْدودةُ

صفاتُها: شدُّ الشَّخص يَدَ الشَّخصِ الآخرِ إليه.

ميزاتُها: قد تُفْهَمُ خطأً وهي دلالةٌ على تشكُّك الشخصِ الشادِّ لليَد لعملية الاتصال ودليلُ ضَعْف ثقته بنفسه.

٤- المصافحةُ الخجولةُ

صفاتُها: المصافحةُ بأطراف الأصابع

ميزاتُها: دليلُ تعالٍ وكبرياء أو خجل أو ضعف الثِّقَة بالنَّفْس أو دليلٌ على رغبة الشَّخص في أن يتكتَّمَ على رغبة معينَّة قلتُ: هذا العزِّزُةُ فراسةُ العيون وغيرها من الفراسة ليعرفَ الشَّخْصُ هَلْ هو متكبِّرٌ أو عندَهُ خجلٌ أو ضعف الثقة بنفسه وهكذا أبواب الكتاب يعزز بعضها بعضًا.

٥- مصافحةُ السَّمكةِ الميْتَةِ

صفاتُها: مصافحةٌ باللَّمْس وفيها بودٌ

ميزاتُها: دليلٌ على غرور أو اعتزاز بالنَّفْس أو ضَعف الثِّقَة بالنفس وقد تُفْهَمُ خطأً بأنَّ الشخصَ لا يُحبُّ أن يرحِّبَ بالآخر.

٦- المصافحةُ الشَّرِسَةُ

صفاتُها: الضَّغْطُ على اليَد المقابلة بصلابة وتُسمى المصافحةَ الحديديَّةَ.

ميزاتُها: هي دليلُ عدوانيَّة أو دليلٌ على أن الشَّخصَ يريدُ أن يظهرَ بمظهر الشَّخص القويِّ الحازم.

٧- المصافحةُ الحاضنَةُ

صفاتُها: احتضانُ يد الشخص بكلتا اليدين وتُسمى المصافحةَ الوديَّةَ.

ميزاتُها: هي مصافحةٌ تعبِّرُ عن التودُّد والمحبَّة ويستخدمُها السياسيُّون في الغالب وتشيعُ بينَ الأصدقاء وإذا استخدمَها شخصٌ لأوَّل مرة مع شخص لا يعرفُهُ جيِّدًا ودلَّ ذلكَ على نوعٍ من التودُّد الزائف «التَّملُّق»!

فِراسة العيونِ
لغةُ العيونِ

للعين لغة يفهمها أهل الفراسة ولا أدل على ذلك أن العشاق كانوا يكتشفون ما وراء العين من التأمل فيهتدون إلى لغاتها والسبب أنه لما كان حبُّهم لاذعًا مؤلمًا علت همتُهم إلى قراءة لغة عُيونِ مَنْ يُحبُّون ومن شواهد ذلك قولُ عُمَرَ بن أبي رَبِيعَةَ:

أشارتْ بطرفِ العين ضيفةَ أهْلِهَا ... إشارةَ مَحْزُونٍ ولمْ تتكلَّمِ

فأيْقَنْتُ أنَّ الطرفَ قد قال: مَرْحَبًا ... وأهْلاً وسَهْلاً بالحبيبِ المُتَيَّمِ[1]

فقد نفى عمرُ في البَيتين الكلامَ اللفظيَّ، ولم ينف مطلق الكلام، ولو أرادَ بقوله: و«لم تتكلم» نَفْي غير الكلامِ اللفظيِّ لانتقض بقوله: فأيقنتُ أن الطرفَ قد قالَ مرحبًا؛ لأنه أثبتَ للطرفِ قولاً، والمرادُ نفيُ الكلامِ اللفظيِّ وإثباتُ كلامِ العين[2].

ومن طريف ما يُذكرُ أنَّه اجتمع أربعةَ عشاقٍ لَقينة، وكلُّهم يواري عن صاحبه بسِّره، ويطوي دونَهُ خبرَهُ ويومئُ إليها بحاجبه ويناجيها بلحظه وكان أحدُهم غائبًا فقدمَ، والآخرُ مقيمًا قد عزمَ على السَّفَرِ، والثالث قد سلفتْ أيَّامَهُ، والرابعُ مُسْتأنفةٌ مودتُهُ. فضحكتْ بعينها إلى الأول، وبكتْ إلى الثاني، وآيست الثالثُ، وأطمعت الرابعُ![3]

(١) «ديوانه» (٢٠٤). شرح محمد محيي الدين عبد الحميد.
(٢) «لغة العيون» د. محمد كشاش (٢٨).
(٣) «العين في الشعر» د. على شلعه (١٠٥).

قال المهدي بن المنصور:

ومُطلع من نَفْسِهِ ما يُسُرُّهُ ... عليه من اللحْظِ الخفيِّ دليلُ

إذا هو لم يُبْدِ الذي في ضميره ... ففي اللَّحْظِ والإيماءِ منْهُ رسُولُ[١]

واختزنَتْ أقوالَهم جملةٌ منها.

فمن قولِهم: «رُبَّ طرفٍ أفصحُ من لسانٍ[٢].

وقال بعضهُم: «أما يُبصر في عينيَّ عنوانَ الذي أُبدي»[٣].

ومن أمثالِهم: «رُبَّ عينٍ أنمُّ من لسانٍ»[٤].

و: «شاهدُ اللَّحظ أصدقُ»[٥].

و: «لحْظٌ أصْدَقُ من لَفْظٍ»[٦].

●●●

(١) شرح مقمات الحريرى (١/ ٢٩١).
(٢) «عيون الأخبار» (٢/ ١٨١).
(٣) «المرجع السابق» (٢/ ١٨١).
(٤) «مجمع الأمثال» (١/ ٣١٤).
(٥) «المرجع السابق» (١/ ٣١٤).
(٦) «المرجع السابق» (٢/ ٢٢٠).